في النقد الذاتيّ

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

الأب أرساني (١٨٩٣-١٩٧٣)، رجل صلاة وأب روحيّ من الطراز الرفيع. أمضى في معتقل الأشغال الشاقّة، في سيبيريا، ثماني عشرة سنة، إبّان الحكم الشيوعي (١٩٤٠-١٩٥٨). مرّةً، وفيما كان بعض المعتقلين السياسيّين، المتعادين فكريّاً، يتجادلون بحدّة، إذا بزعيم إحدى المجموعتين يجلب الأب أرساني إلى حلبة الجدال، بالقوّة، ويسأله أمام الجميع: ما هو موقفه وموقف الكنيسة من الحكومة الملحدة، التي تقتل الكهنة وتعتقلهم، وتهدم الكنائس والأديرة، وتحارب الدين بلا هوادة؟ ظنّ ذاك المتزعم أنّه سيتسلّى بإحراج كاهن "غبيّ."

تردّد الأب أرساني في الجواب، رغبةً منه في عدم الدخول في السجال القائم. خاصّةً، وأنّه ما سبق له وشارك فيه من قبل. لكنّه، تحت الضغط، رسم إشارة الصليب، وبدأ شرحاً مستفيضاً، خلاصته أنّ التربة، التي أنبتت الإلحاد والعداء للكنيسة، قد هيّأها الروس بأيديهم، بسبب "الأمثلة السيّئة، التي قدّمتها لنا طبقة المثقّفين، والنبلاء والتجار والموظفين في دوائر الحكومة. وكنّا، نحن، في سلك الكهنوت أسوأهم جميعاً." ليخلص إلى القول: "لا يمكنني أن أوجّه إصبع الاتهام إلى سلطاتنا، لأنّ بذور عدم الإيمان سقطت في التربة التي أعددناها بأنفسنا." "نحن أنفسنا مذنبون أيضاً. إنّنا نحصد فقط ما زرعته أيدينا."

دفع الأب أرساني، في المعتقل، كثيراً من المضايقات، ثمناً لموقفه هذا. لكنّه قدّم مثالاً صادقاً في اللا انفعال أمام المعاناة الرهيبة التي يعيشها وشعبه في ذلك الحين، وعمقاً في التحليل حول أسباب نشوئها.

يتكلّم تعليمنا الروحيّ الأرثوذكسيّ عن "لوم النفس،" الذي يقوم على اكتشاف الدور الشخصي في التقصير أو الغلط الحاصل، بدلاً من تحميل وزره للآخرين. هذا ما نسمّيه بلغتنا المعاصرة "النقد الذاتيّ،" الذي نادراً ما نجده في أوساطنا. فالجميع حاضر لإلقاء اللوم على غيره، وتوجيه سهام النقد إليه، فيما يعتبر نفسه بريئاً "من دم ذاك الصدّيق."

لا ينضج الإنسان، على أيّ صعيد، ولا تستمرّ أيّ مؤسّسة في التقدّم والتطوّر، ما لم تتبع مبدأ النقد أو التقييم الذاتيين دوريّاً، وباستمرار.

فكيف لك أن تتخلّص من عيوبك ما لم تَرَها، وتقتنع بأنّها موجودة فيك؟ وبأيّ حقّ ترى عيوب غيرك، وتهاجمه، وأنت مليء بالعيوب ذاتها؟ ما أصدق كلمة الإنجيل التالية في واقعنا! "لماذا تنظر إلى القشّة في عين أخيك، ولا تبالي بالخشبة في عينك؟ يا مُراءٍ، أخرج الخشبة من عينك أولاً، حتّى تبصر جيّداً فتُخرِج القشّة من عين أخيك" (متّى ٧: ٣، ٥).

المؤمن الحقّ ينقد ذاته أوّلاً، ومن ثمّ ينقد العمل الخاطئ، لا الشخص المخطئ. في الواقع، نحن ماهرون في الانتقاد لا النقد. والفرق بينهما شاسع جدّاً. فالانتقاد يقوم على الانفعالات والعواطف والغضب والتذمّر، وهذه تشوبها اللا موضوعيّة واللا عقلانيّة، فيغدو الكلام تجريحاً للشخص وتهشيماً له. كذلك يقوم على نظرة سطحيّة لموضوع الانتقاد، نظرة لا تكلّف نفسها حتّى عناء التفكير، بل تصوّب السهام على ما تراه، دونما جهد لمعرفة الأسباب، التي أدّت إلى ظهوره. وغالباً ما ينتهي النقاش بانتهاء الجلسة، ولا يحمل المشتركون فيه سوى مشاعر الغضب والكراهية والسخط على الواقع والأشخاص، موضوع الانتقاد. الانتقاد عمل سلبيّ بالكليّة، فهو يُبقي الأمور على ما هي، ولا يساهم إلا في "فشّة الخلْق،" التي يعقبها جَيَشان له أقوى وأكثف.

أمّا النقد، فيقوم على التحليل الهادئ المتعمّق، الذي ينظر في بواطن الأمور، وماضيها، بغية معرفة مواطن الخلل والأسباب التي أدت إليه. لا يقف عند مسؤولية الشخص إلا بمقدار ما يساهم، عن معرفة أو عن غير معرفة، في تغذية الأسباب المؤدية إلى الخلل. للنقد مقوّماته ومعاييره التي يجب التقيّد بها، بدقّة. ويجب أن يكون نقداً بنّاءً وإيجابيّاً، لتساهم النتائج التي يصل إليها في وضع أسس التقويم والإصلاح.

يجتمع الناس على الانتقاد لأنّه يوهمهم بأنّهم إذا صبّوا جام غضبهم على ظاهرة سلبيّة ما، وجعلوا مسؤوليّتها كليّاً على غيرهم، فإنّهم يبرّؤون أنفسهم من مسؤوليّة المشاركة فيها. أمّا النقد الموضوعيّ فيحمّل الناقد مسؤولية شخصيّة في الوصول إلى حالة الانحطاط أو التقهقر أو الفساد، موضوع النقد.

لو كانت بيوتنا عامرة بالتقوى ومخافة الله، ومبنيّة على القيم والفضائل الإنجيليّة، أكانت تُخَرِّج انتهازيين ووصوليين وضعفاء؟ لو كنّا نربي أولادنا على

الصدق والموضوعيّة ومعنى الحياة الحقّة، فهل كان للتفاهة والسطحيّة وأنانيّة مكان؟ "هل يجتنون من الشوك عنباً، أومن الحسك تيناً؟" (متّى، ٧ ، ١٦).

أينما ذهبت تسمع الانتقاد حول هذا وذاك من الأمور والأشخاص، ولعلّ معظمها صحيح. ولكن السؤال الأهمّ يجب أن يوَّجَه باتجاه البحث عن أسباب هذه الحالات، موضوع الانتقاد، ونحو التوصّل إلى وضع جملةٍ من الحلول للحدّ منها، وتقويم الاعوجاج الحاصل.

والأهمّ من هذا وذاك هو مطالبة الذات بمسؤوليّتها عن حدوث الخلل، وعن السعي إلى تقويمه، في الوقت ذاته. فطالما أنّنا نضع اللوم على غيرنا، أيّاً يكن، سنبقى نرتع في ما نحن رافضون له ومتذمّرون منه.

طالبْ نفسك أوّلاً. ولا تستهِنْ بموقعك، مهما كان صغيراً وغير ذي تأثير. لك دورٌ في نشر ثقافة البناء، فَعِّلْهُ ولا تهتمّ بالنتيجة كثيراً. المهمّ أن تقوم بما هو في استطاعتك. فأمّ بسيطة وفاضلة أفضل بما لا يقاس من أمّ متعلّمة وتجهل الفضيلة. معلّم مدرسة مستقيم ومحبّ لتلاميذه يخلق جيلاً من الطلّاب الفاعلين، الذين يحبّون الاستقامة بفضله. كاهن تقيّ ورسول يؤثّر في تغيير حياة الكثيرين. وعامل مهذّب وخلوق يساهم في بناء الثقة بين أفراد المجتمع. ومثقّف متواضع وصبور يفتح العقول المغمضة.

ما عندك إنّما هو موهبة أو أكثر منحك الله إيّاها، لتستثمرَها وتزيدَها، لا لتثرثر على هذا وذاك، وتبقى فارغاً وتافهاً.